بعض مظاهر العمران في المغرب في العصر المريني
(٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٥م)
"دراسة تاريخية"

أماني محمد محمد قطب
مدرس بكلية الآداب – جامعة أسيوط

ملخص:

يتناول البحث بعض مظاهر العمران في المغرب في العصر المريني والعوامل التي أثرت في أشكال العمارة المرينية، وأهمها عامل التأثير الأندلسي وعوامل قوته من أصالة وإبداع وتنوع، وكذلك التعاون السياسي والحضاري بين الجانبين المغربي والأندلسي، ثم يعرض لمظاهر العمران التي ازدهرت في العصر المريني ومنها العمارة المدنية كالمدن والقصور، والدينية كالمساجد، والثقافية كالمدارس والعسكرية كالأبراج والأبواب وبعض المنشآت الأخرى كالسقايات والبيمارستنات(المشافي).ثم يذيل بأهم النتائج التي خلص إليها البحث وبعض الأشكال التي توضح متن البحث.

Abstract

The study focuses on some aspects of urbanization in Morocco during the Marinid era. It elaborates on the factors that affected the Marinid architecture, especially the originality, innovativeness, and diversity of the Andalusian influences, as well as the political and cultural cooperation between Morocco and Andalusia. Furthermore, the study touches upon some urban semblances that came to prominence in the Marinid era, most notably the civil architecture, represented in cities and palaces, religious architecture, as in mosques, cultural architecture, such as schools, military architecture, as in towers and doors, and other foundations such as sabils (public drinking fountains) and hospitals. Finally, the research is concluded with the most important results and some figures relevant to its content.

مقدمة :

يعد تاريخ العمارة شكلًا من أشكال الدراسات التاريخية التي لا يمكن تدلسيها؛ حيث ارتبطت العمارة بالإنسان ارتباطًا وثيقًا بوصفها عملًا لازمًا له ومعبرًا عن ثقافته، فعبر التاريخ تتكون حضارات وأمم تسعى لتمييز هويتها، وتصيغ تلك الشعوب حضارتها في مبانٍ تعكس ثقافتها ورقيها، ومدى تفاعلها مع مكونات البيئة المحيطة، ولفظ العمارة مأخوذ من التعمير، ويقال: عَمَّرَ الله بك منزلك، يعمره عمارة، وأعمره: جعله آهلًا[١].

ويرجع ازدهار العمارة إلى عدة أسباب؛ منها رغبة الإنسان الخالدة في البقاء التي تدفعه لترك آثار تخبر اللاحقين عنه، وربما كانت المنافسة هي الدافع وراء تشييد المباني العظمى في الحضارات المختلفة، فمما لا شك فيه، أن المباني الضخمة والتصميمات الفريدة كانت مجالًا قويًّا للتنافس بين الشعوب، وثمة دافع قوي لازدهار العمارة عبر التاريخ الإنساني، وهو قوة الدافع الديني، فمن الواضح أن العمارة الدينية المتمثلة في المعابد قديمًا ثم الكنائس والمساجد هي الأكثر فخامة وبقاء إلى الآن، ثم تأت القصور في المرتبة الثانية.

وتعكس العمارة كافة الجوانب الحضارية في حياة الأمم؛ فمنها نأخذ مدى تقدم العلوم الهندسية والفلكلية، وكذلك الصناعات ابتداءً من صناعة الطوب والأحجار المستخدمة في البناء وانتهاءً بفنون التزيين والنقش كالزليج وغيرها، كما تعكس المباني العملاقة مدي التطور الذي طال صناعة أدوات البناء، وتوضح مدى استقرار الحالة الاقتصادية والسياسية للشعوب، فمن المعروف أنه لا استقرار وعمارة دون رخاء اقتصادي واستقرار سياسي، فالعمارة هي الفيصل بين الحياة البدائية المتمثلة في الرعي والتنقل والاستقرار المصاحب للبناء.

ومن الجدير بالذكر أن العمارة تراث إنساني مشترك، فلا يخفى على أحد مدى التأثر بين الحضارات المختلفة بفنون العمارة لدى بعضها البعض، وإن كان بعضها تميز بطراز فريد، فيعزى للآخر تطوير هذا الطراز والإضافة إليه. وخير مثال على

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤، ص٦٠٤.

ذلك مجموعة الدول التي قامت في العالم الإسلامي، وبخاصة التي جمعها التقارب المكاني والوحدة السياسية في آن واحد، وتعد الأندلس والمغرب من أوضح الأمثلة في تلك الحالة؛ حيث شهد كل منهما دولًا متعاقبة حاولت تخليد ذكراها بمجموعة من المباني الدينية والمدنية، ولا يخفى على الدارس لحضارة بلاد الأندلس والمغرب حالة التشابه والتقارب في عمارة كلا الجانبين. ويتناول البحث قضية التأثير والتأثر بين الجانبين الأندلسي والمغربي في مجال العمارة، وأيهما أسبق في التأثير على الآخر، وينتهي بعدة نتائج، ثم يُذَيَّل بمجموعة من الأشكال التي توضح متن البحث.

ونظرًا لأهمية الفترة المرينية في تاريخ بلاد المغرب، فقد تناول الباحثون في دراسات كثيرة جوانبها السياسية والحضارية، وتسلط الدراسة الضوء على الجانب العمراني والعوامل المؤثرة فيه والنفقات التي خصصها سلاطين بني مرين لهذا الجانب.

- **بعض العوامل المؤثرة في العمارة العصر المريني:**
- **القرب المكاني من الأندلس:**

إن موقع العدوتين المغربية والأندلسية (خريطة١) فرض حالة من التمازج الحضاري بين الأندلس والمغرب الأقصى؛ فمن الناحية الجغرافية، يعد المغرب الأقصى أقرب بلاد العالم الإسلامي للأندلس، فبإمكان الواقف على روابي طنجة بالمغرب رؤية أرض الأندلس بالعين المجردة [١].

وانعكس ذلك التقارب المكاني على كثير من مسميات الأماكن في المغرب، حيث نجد مدينة فاس عاصمة المغرب نفسها تنقسم إلى عدوتين تسمى إحداهما بعدوة الأندلسيين[٢].

ومن الجدير بالذكر أن هناك صدى كبيرًا لكل الأحداث السياسية التي وقعت في المغرب على الأندلس، فقد كان إتمام فتح المغرب هو إشارة البدء للتوجه إلى الأندلس؛ حيث انطلق الجيش الإسلامي بقيادة طارق بن زياد ليطأ المسلمون أرض

---

(١) عبد العاطي محمد الورفلي: أوراق أندلسية، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ١٩٩٠م، ص ٦.

(٢) البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٢م،ج٢، ص ٧٩٥.

الأندلس لأول مرة، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن ذلك التوجه كان بإيعاز من ليليان حاكم مدينة سبتة المغربية[١].

كما كان لوجود دولة الفاطميين في المغرب عامة دور في توجيه أنظار بني أمية في الأندلس إلى المغرب، وبلغ الأمر ذروته في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م)[٢] الذي مد نفوذه الفعلي إلى المغرب، وبايعته كثير من القبائل، وخُطِبَ له على المنابر من تاهرت إلى طنجة عدا سجلماسة[٣]، وحرصت القوى المناوئة للفاطميين في المغرب على إرسال أخبار الصراع معهم إلى الأندلس، وكان البلاط الأموي يستقبلها ببالغ الفرح، حيث تواصل أبو اليزيد مخلد بن كيداد[٤] مع الخليفة الناصر، ودخل تحت الطاعة الاسمية له، وبالغ الناصر في إكرام

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،١٩٩٥م. ص٢٣٢.

(٢) **عبد الرحمن الناصر**: أشهر وأول خلفاء بني أمية في الأندلس، وثامن من حكم منهم، بلغ حكمه خمسين عامًا وستة أشهر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١ م)، وبلغت الدولة الأموية في عهده أقصى اتساع لها، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين، وحول الإمارة إلى خلافة، وكان عهده من ألمع العصور؛ ازدهرت فيه العلوم والآداب، وقصده الشعراء والعلماء. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج٦، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م، ج٤، ص١٥٦؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس،ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٦٩٦.

(٣) الناصري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي، ت: ١٣١٥هـ/١٨٧٩م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، د-ت، ج١، ص٢٥٢.

(٤) **أبو يزيد** مخلد بن كيداد اليفرني الملقب بصاحب الحمار، قام بأخطر الثورات التي تعرضت لها الدولة الفاطمية بالمغرب، وهو ثائر خارجي نكاري المذهب، كان أبوه يتاجر في بلاد السودان، استمرت ثورته فيما بين سنتي ٣٣٢-٣٣٦هـ، وكادت ثورته أن تذهب بدولة الفاطميين بالمغرب. ابن عذاري: البيان المغرب،ج٢، ص٢١٢-٢١٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٣٨؛ إحسان عباس: مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، مجلة الأصالة، عدد ٤١، ص ٢٥.

رسل أبي اليزيد، رغم أن الأخير على المذهب الخارجي المخالف لمذهب الأمويين في الأندلس[١].

واستمرت عملية التأثير والتأثر حتى توجت بالتوحيد الكامل في عهد المرابطين ثم الموحدين؛ إذ كان اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وراء استنجاد الأندلسيين بإخوتهم في الدين والجوار من المرابطين القوة الصاعدة في المغرب في ذلك الوقت، واستمر التمازج في عهد الموحدين الذين عدوا أنفسهم الورثة الشرعيين للإرث المرابطي.

وكان لواقعة العقاب في (٦٠٩هـ/١٢١٢م)[٢] التي حدثت في الأندلس صداها في المغرب؛ إذ كانت هزيمة الموحدين في معاركهم في الأندلس بداية النهاية لإمبراطورية الموحدين، وبسقوط الموحدين وتقاسم ممتلكاتهم[٣] بدأ عصر جديد بين الأندلس والمغرب أخذ شكل التعاون المتوازي أكثر منه صراعًا لفرض السيطرة.

---

(١) ابن عذاري (المراكشي، ت:٦٩٥هـ /١٢٩٥م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ط٣، ج٢، ص ٢١٢-٢١٧.

(٢) معركة العقاب(٦٠٩سنة هـ/١٢١٢م) دارت هذه المعركة بين الموحدين بقيادة الناصر الموحدي، وبين الجيش المسيحي الإسباني بقيادة ألفونسوا الثامن بموضع يعرف في المصادر العربية باسم العقاب نسبة إلى حصن قديم ينسب إلى الأمويين وفي المصادر الإسبانية las navas de tolosa الذي يعني الوديان الفسيحة، وانتهت بانتصار الإسبان وكانت بداية النهاية للدولة الموحدية والوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية للاستزاده انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) مع ضعف الخلافة الموحدية بدأت عدة قوى محلية في الانفراد بمناطق حكمها، وكانت أبرز القوى التي تقاسمت الإرث الموحدي دولة بني حفص بتونس (٦٢٦هـ/١٢٢٩م – ٩٨١هـ/١٥٧٣م)، ودولة بني زيان بتلمسان (٦٣٣هـ/١٢٣٥م- ٩٥٧هـ /١٥٥٠م)، ودولة بني مرين بالمغرب الأقصى (٦٦٨هـ/١٢٦٩م –٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م)، ودولة بني نصر في الأندلس (٦٣٥هـ / ١٢٣٨م–٨٩٧هـ/١٤٩٢م)، واستمر هذا التقسيم لبلاد المغرب زهاء ثلاثة قرون.

كما أخذت العلاقات بين المغرب والأندلس في العصر المريني طابع التعاون؛ حيث أدرك كلا الجانبين أنهما ليسا بحاجة إلى الصراع، كما كانت المعطيات التاريخية لتلك المرحلة تفرض ذلك الشكل من أشكال العلاقة، فبني مرين مشغولون بفرض سيطرتهم على بلاد المغرب وإحياء المجد الموحدي، كما كان بنو نصر منشغلين بالصراع مع الممالك النصرانية التي حاصرتهم، ويلاحظ هذه المرة أن تدخل المغرب لإنقاذ الموقف في الأندلس كان للمساعدة وليس التصدر للمشهد برمته كما فعل المرابطون.

ولا يمكن التشكيك في نوايا بني مرين في الجهاد في الأندلس؛ فقد جاز أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م)، جيوشه للأندلس أربع مرات متواليات[١]، الجواز الأول (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، وقد كان بناء على طلب مباشر من سلطان بني الأحمر لمواجهة أطماع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، وعبرت قوات أبي يوسف للجانب الأندلسي، وتمكنت من هزيمة القوات المسيحية في إستجة[٢]، وقتل قائد جيشهم، وأُرْسِل رأسه إلى ابن الأحمر[٣]؛ تعبيراً عن التضامن الإسلامي بين الدولتين[٤]. أما الجواز الثانى عام (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) فقد كان هدفه أيضًا إرباك

---

(١) عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،١٩٨٢م، ص٧٨٩؛ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٦٨م، ص٣٣٣.

(٢) **إستجة**: مدينة أندلسية مشهورة بالقرب من قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج١، ص١٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٣٢١: ص٣٢٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٢٥٠: ص٢٧٦، أبو رحاب: المدارس المغربية في العصر المريني (دراسة آثارية معمارية)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، الإسكندرية، ٢٠١١م ، ص ٤٩

(٤) عبد الرحمن العجلان: التضامن الإسلامي في الأندلس وأثره في تحقيق قوة المسلمين، بحث نشر في ندوة "الأندلس الدرس والتاريخ" بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مارس ١٩٩٥م، ص٤٠.

الجانب الإسباني، والإغارة على بعض الحصون[١]، وعلى الرغم من أن الجواز الأول والثاني ليعقوب كانا للدفاع عن ما تبقى للمسلمين من ثغور في الأندلس،[٢] فإن الجواز الثالث (٦٨١هـ/١٢٨٢م) والرابع اختلفت دوافعهما، فقد كانا لتأديب ابن ملك قشتالة الذي كان حليفًا للسلطان النصري، بينما كان أبوه حليفًا لأبي يوسف يعقوب، ولم يلبث يعقوب أن توفي بالجزيرة الخضراء سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م).[٣]

وتبين خلال مرحلة الجهاد المريني في الأندلس أن غرناطة ليست جادة بمد يد التعاون لمواجهة الخطر الإسباني، وإن كان المعتمد ابن عباد[٤] سمح للمرابطين بالسيطرة على الأندلس حتى لا يعيدها دار كفر[٥]، فإن البيت الغرناطي حاز تلك الخيبة، وبعد أن أدرك سلاطين بني مرين النوايا الحقيقية لملوك غرناطة وجهوا جهودهم للمغرب[٦]، وتراجع التعاون السياسي، ولكن انتعش التواصل الحضاري بين الجانبين، وكان الهجرات إلى المغرب أبرز ملامحه.

---

(١) محمد أبو رحاب: المدارس المغربية، ص٥١.

(٢) محمد زروق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ –١٧، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ٤٠.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٣٢١: ص٣٢٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٢٥٠: ص٢٧٦؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ج٢، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص ص٥٥٦، ٥٥٨؛ أبو رحاب: المدارس المغربية في العصر المريني، ص ٤٩.

(٤) أبو القاسم الملقب بالمعتمد صاحب إشبيلية وأحد ملوك الطوائف فى الأندلس كان أديبا شاعرًا وهو الذي استنجد بالمرابطين بعد أن رأى خطرًا حقيقيًّا يهدد الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط طليطله فى يد الفونسو السادس ملك قشتاله سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) وانتهت حياته معزولاً بأغمات سنة (٤٨٨هـ/١١٩٥م)انظر: الضبى :بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث ،دار الكتاب العربى ،القاهرة ،١٩٦٧م ،ص ١١٨

(٥) ابن عذاري: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق د/سهيل زكار، وأ/ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص٤٥.

(٦) محمد الشريف: تاريخ المغرب المريني وحضارته، مطبعة الهداية، تطوان، ٢٠١١م، ص ٤١.

- **الهجرات المتبادلة**:

كانت الهجرات المتبادلة بين بلاد المغرب والأندلس من أهم العوامل المؤثرة في التواصل الحضاري بين الجانبين؛ إذ كانت الجيوش تعبر من المغرب للجواز إلى الأندلس والدفاع عنه، وكانت الهجرات الأندلسية تأت إلى المغرب هربًا من المد النصراني في الأندلس أو هربًا من الحكام.

وكانت أولى الهجرات الملموسة التي جاءت إلى المغرب تلك التي جاءت عقب ثورة أهل الربض[١] والشدة المفرطة التي واجه بها الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) ثورة أهل الربض حتى نُسبت إليه، فصار يُعرف بالحكم الربضي.

والجدير بالذكر هنا أن أهل الربض الذين نكَّل بهم الحكم، وغادروا الأندلس، كانوا من الحرفيين والصناع بالإضافة إلى مجموعة من الفقهاء، مما يشير إلى مهارتهم ومدى تأثيرهم، وقد كانت مدينة فاس الوجهة الأولى لهؤلاء المهاجرين، وتصادف وقت هجرتهم مع شروع إدريس الثاني (١٨٦-٢١٣هـ/٨٠٢-٨٢٨م) – المؤسس الفعلي لدولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ/٧٨٨-٩٨٥م) في بناء مدينة فاس، وعندما شيد إدريس المدينتين الصغريتين اللتين تكونت منهما فاس بعد ذلك، ونتيجة لكثرة الأندلسيين الموجودين في إحدى العدوتين، سميت إحداهما بعدوة الأندلسيين[٢].

---

(١) ثورة الربض أو هيج الربض ٢٠٢هـ/٨١٧م: هي إحدى الثورات ذات الطبيعة الخاصة التي كادت أن تعصف بالحكم بن هشام (٨٠- ٢٠٦هـ /٧٩٦-٨٢٢م) وكان الفقهاء والعامة هم عماد هذه الثورة وهو ما أضفى طبيعة خاصة عليها؛ والسبب المعلن لها كان تعدي أحد الجنود على أحد الصناع، وكادت الثورة أن تعصف بالحكم الأموى في الأندلس ولكن الحكم استخدم وسائل في غاية القسوة حتي يستطيع السيطرة على الثورة، واستطاع ذلك بالفعل وطرد أهل الربض من الأندلس، وكان لذلك بالغ الأثر الحضاري على الأماكن التي هاجر لها أهل الربض، وآثر نفسية على شخصية الحكم حتى وفاته. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، ص ٧٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٧٢.

وكانت العلاقة طردية بين حركة الاسترداد المسيحي وهجرة الأندلسيين وتفرقهم في أنحاء العالم الإسلامي وبالأخص بلاد المغرب، ويلاحظ أن وتيرة الهجرة كانت تزداد عقب الوقائع التي هزم فيها المسلمون؛ حيث هاجرت كثير من العناصر الأندلسية عقب موقعة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م[١]، ولم يمض غير ٢٤ عامًا حتى سقطت قرطبة، وهاجر جمع كبير من أهلها إلى المغرب، وقد توزع هؤلاء في بلاد المغرب.

وأعقب نهاية دولة المسلمين في الأندلس هجرة جماعية للمسلمين من الأندلس الذين توجهوا إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي وبالأخص بلاد المغرب.

عوامل تأثير العمارة الأندلسية على العمارة المغربية في العصر المريني:

ترجع أصول العمارة الإسلامية في الأندلس إلى عصر الأمويين البناة العظام الذين أحيوا الدولة الأموية مرة أخرى في الأندلس، ودفعهم حنينهم إلى دمشق لإنشاء القصور والبساتين التي تذكرهم بها[٢].

ولم يقتصر تأثير العمارة الأندلسية على بلاد المغرب، بل امتد تأثيرها بشكل واضح على العمارة المسيحية نفسها؛ فكانت القصور الملكية في الممالك النصرانية نماذج من القصور الملكية الأندلسية؛ وكان أثر الفن المعماري الأندلسي قوًّيا في الكنائس ذاتها؛ ففي كثير من الكنائس الإسبانية والبرتغالية تُلاحظ ملامح المسجد ظاهرة في عقودها وأروقتها، كما أقيمت أبراج كثير من الكنائس المشهورة على نمط المنارة الإسلامية[٣].

---

(١) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، ج٣،ص٢٤١.

(٢) محمد عبد المنعم الجمل: قصور الحمراء ديوان العمارة والنقوش العربية، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية ٢٠٠٤م، ص ٢٧.

(٣) أنور محمود زناتي: العمارة الأندلسية ودورها في التواصل الثقافي بين الشعوب ٩٢ – ٨٩٧هـ/ ٧١١ –١٤٩٢م، مجلة كلية الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد ٢٩ لسنة ٢٠١٨م، ص ص ١٠٤–١٣١.

وقد أدرك حكام المغرب كفاءة العناصر الأندلسية في مختلف المجالات، فجبلوا الصناع ومهندسي البناء من الأندلس للإشراف على مشروعاتهم العمرانية الكبرى[١].

وقد تميزت العمارة الأندلسية بالتنوع على كافة الأصعدة، سواء أكان ذلك في المواد المستخدمة أم الأشكال؛ فقد استعمل المزخرفون الأندلسيون الحجر، والرخام، والفسيفساء، والخزف، والقيشاني، والبلاط القرميدي، والآجر المطلي، واُستخِدم النوعان الأخيران في النواتئ التزيينية في المآذن[٢].

كما تنوعت الأشكال أيضًا؛ حيث استخدمت الأقواس نصف الدائرية، أو على شكل حدوة الحصان، والأقواس المدورة الفصوص في أكثر الأبنية، وخاصة في أروقة جامع قرطبة، وقد طورت هذه الأقواس، وتعددت أشكالها في عصر المرابطين والموحدين[٣].

وتنوع شكل الأقواس المفصصة؛ فكان منها المشجّر والمقرنص، واستُعمِلت فيها الأحجار الملونة بالتناوب، وخاصة الأحمر والأصفر، أو الأحمر والأبيض، واتُبِع الأسلوب نفسه في مدينة الزاهرة، ولكن بروز النحت فيها كان قليلًا (شكل٢)، وفي زخارفها عناصر مستمدة من الفنون القديمة كحبات اللؤلؤ، والحلزون، وحلية القلب، وأوراق الشجر[٤].

كما كان للخط العربي دور مهم في زخرفة المباني المدنية والدينية، وخاصة مسجد قرطبة. وقد استعمل فيها الخط الكوفي البسيط أو المشجر، كما انتقلت إلى الأندلس الكتابة الفاطمية من إفريقية، وقد انتقل الخط الأندلسي إلى المغرب في العصر المريني، واستعمل في المخاطبات، وكذلك النقش على المنشآت العمرانية، وقد

---

(١) آمال العمري وآخرون: التأثيرات الأندلسية على العمارة والفنون المغربية من العصر المرابطين حتى نهاية العصر المريني "٨٦٩ – ٤٦٢ هـ/١٠٦٩–١٤٦٤ م": نظرة عامة في ضوء المصادر والشواهد الأثرية، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، عدد خاص، ٢٠١٦م، ص ص ١–٢٠.

(2) www.marefa.org

(3) www.marefa.org

(4) www.marefa.org

برر ابن خلدون ذلك بقوله: "وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جرارهم، وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبًا واستعمالهم إياهم سائر الدولة"[١] .

ولما اختار عبد الرحمن الداخل قرطبة عاصمة له، ظهرت في زخارف المباني الأندلسية الزخارف النباتية المتداخلة التي عرفتها دمشق قبلها سعف النخل (مراوح النخيل)، وورق الكرمة وأغصانها، والإضافات الملحقة به.[٢].

وكانت الزخرفة تغطي المساحة المطلوبة بكثافة كبيرة، وذلك من مميزات الفن العربي الإسلامي الذي عرف في أوربا باسم الأرابسك. وتضاف إلى العناصر الزخرفية النباتية في الأندلس الأشكال الإنسانية والحيوانية، وخاصة تلك الذي نصبت على الأحواض الرخامية في القصور في القرنين الثالث والرابع الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين)، ولكن القرن الخامس للهجرة شهد انقطاعًا جليًّا في هذه العناصر لتعارضها مع فكر الموحدين واعتقادهم. كما راج استخدام الزخارف الجصية في المباني الأندلسية التي بلغت قمتها في قصر الحمراء.[٣]

وقد عُرفت العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى أنحاء العالم الإسلامي بالمهارة والدقة في جميع المجالات، وبالأخص مجال العمارة، وثمة نص أورده المقري لابد من ذكره يبرز تأثير هؤلاء المهاجرين على المناطق التي استقروا فيها، إذ قال: " ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية، فأما أهل البادية، فمالوا

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٥٢٩.

(2)https://www.marefa.org/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A9

(3)https://www.marefa.org/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A9

في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها، وشاركوهم فيها، فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم، وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم، وعمتهم الخيرات، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت، ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس، فورثوا عنهم ذلك، وأما أهل الحواضر، فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء، والكتاب، والعمال، وجباة الأموال، والمستعملون في أمور المملكة، ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي، وأما أهل الصنائع، فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعًا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل، انتهى[١].

ولابد أن مهارة العناصر الأندلسية وإتقانها لعملها كانت وراء التأثيرات الأندلسية على العمارة المغربية في مختلف العصور وحتى عصر بني مرين.

ويستخلص من البحث أنه كان هناك عملية تأثير وتأثر بين المغرب والأندلس، ورغم التأثير الواضح للعمارة الأندلسية، فإن المغرب طور بعض ملامح العمارة الأندلسية، واختص بأسلوب معماري يدمج بين الطابع الأندلسي والطابع المغربي.

– بعض مظاهر العمران في المغرب المريني.

ارتبط نظام الحكم المريني بالعمارة؛ حيث كان سلاطين بني مرين يباشرون أعمالهم في تسيير شئون الدولة في مجالس أعدت عمارتها خصيصًا للأغراض المختلفة، حيث كان مجلس الفصل ينعقد في قبة مخصصة بالقصر[٢] الملكي بفاس

---

(١) المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣، ص١٥٢.

(٢) السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب(٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٩م):هو أعظم سلاطين بني مرين ، وأوسعهم ذكراً، وقد خلف والده أبا سعيد عقب وفاته مباشرة ، وارتبط اسمه بمحاولات عديدة لتوحيد بلاد المغرب تحت إدارته مركزية واحدة.) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٩.

الجديد للنظر في القضايا المهمة، بينما مجلس الخاص ينعقد في قبة أخرى، أما مجلس العرض المخصص لاستعراض الجيش واستقبال الوفود فكان مقره برج الذهب بأحد البساتين خارج فاس الجديد، كما أسس السلطان أبو الحسن قبة العدل للفصل في الشكاوى المختلفة، أما سقائف الترس والنصل[١]، فهي أعمال عمرانية أنشئت للأغراض العسكرية.

علاوة على ذلك، اشتهر سلاطين بني مرين بشغفهم بالبناء والتعمير؛ فإلى هؤلاء السلاطين يرجع الفضل في بعث روح البناء والتعمير من جديد في بلاد المغرب، بعدما أصيبت البلاد بحالة من الانكماش العمراني والمعماري منذ وفاة يعقوب المنصور الموحدي يعقوب المنصور (٥٨٠ –٥٩٥هـ/١١٨٤– ١١٩٩م)[٢] ، واستمرت قرابة قرن من الزمان لم تعرف البلاد خلالها منشآت معمارية بارزة، ثم ازدانت بلاد المغرب في عصر بنى مرين بعمائر متنوعة؛ فمن المنشآت الدينية أقاموا مجموعة رائعة من المساجد، والمدارس، ومكاتب تعليم الصبيان، وخزائن الكتب والزوايا، كذلك اهتموا بالمنشآت المدنية؛ فشيدوا المدن، والقصور، والدور، والبيمارستانات، والفنادق، والأسواق، والحمامات، والقناطر، والسقايات، كل ذلك إلى جانب المنشآت الحربية كالقصاب، والربط، والحصون، والأسوار[٣].

ومن أهم مظاهر العمران في العصر المريني:

١- العمارة الدينية

المساجد:

شيد المرينيون عدة مساجد في مختلف أنحاء المغرب الأقصى والأوسط، وإن كانت هذه المساجد قد فقدت صفة كبر المساحة التي عرفت بها العمارة الموحدية؛ فبدت صغيرة الحجم، رقيقة البنية، إلا أنها احتفظت بالعناصر التخطيطية التقليدية في

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.، ج١، ص ١٧٦.

(٢) من أهم خلفاء الدولة الموحدية وهو صاحب واقعة الأرك المشهورة في الأندلس ٥٩١هـ/١١٩٤م. عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٠٦.

(٣) أبو رحاب: المدارس، ص٤١، ص ٨٣.

المساجد المغربية كالصحن المكشوف، والأروقة المتجهة عمودياً على جدار القبلة، وعقود حدوة الفرس المرتكزة على الدعائم المربعة والمستطيلة[١]، ومن أهم هذه المساجد:

المسجد الجامع بفاس الجديد:

يقع هذا المسجد بالقرب من القصر الملكي الذي يتصل بالجامع بواسطة فتحة باب تفضي إلى رواق القبلة، وقد أنشئ هذا المسجد على يد أبي يوسف يعقوب في شهر رمضان عام (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) [٢]، واستخدم في بنائه أسرى الأسبان إلى جانب العمال المغاربة، وهذا ما جعل عمارته يزدوج فيها – إلى حد ما – الفن المغربي بالإسباني[٣]، وتولى أمر الأشراف على عمارته أبو عبد الله بن عبد الكريم الحدودي، ووالي مكناس أبو علي الأزرق، ويبدو أن الأول كان مشرفاً على التصميمات، بينما أشرف الثاني بحكم وظيفته على النفقات، حيث إنها كانت من مداخيل معصرة مكناس[٤]، **(شكل ١)**.

وقد قام بعض سلاطين بنى مرين بإدخال إصلاحات على هذا المسجد؛ ففي عام (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) قام السلطان أبو فارس عبد العزيز (٧٩٦– ٧٩٩ هـ/١٣٩٣–١٣٩٦م) بعمل إصلاحات بهذا المسجد، انصبت فيما يبدو على الناحية الزخرفية[٥].

وقد مثل هذا المسجد قمة التمازج بين العمارة الإسبانية والعمارة المغاربية؛ حيث أشرف فنيًّا على بنائه الصانع الأندلسي الرصاع، وإن كان المظهر الخارجي للجامع فيه امتزاج جمع بين النموذجين الأندلس والمغربي، فإن داخل المسجد كان قريبًا إلى

---

(١) أبو رحاب: المدارس، ص ٨٦.

(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م ، ص١٦٢؛ أبورحاب: المدارس، ص٨٦.

(٣) للاستزاده في هذا الموضوع انظر: أحمد الكامون، هشام السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية، وجدة، ٢٠١٠م، ص٩١.

(٤) عثمان إسماعيل: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٣م .ج٤، ص ١٢٤، أبو رحاب: المدارس، ص٨٦.

(٥) أبو رحاب: المدارس، ص٨٧.

حد كبير من جامع قرطبة، حيث كانت الثريا المعلقة داخل المسجد المتكونة من ثلاثة أجزاء تشبه مثيلتها في جامع قرطبة، وقد بلغ ارتفاع قاعدة هذه الثريا ٠,٢٥م، وتكونت من اثنتي عشرة حشوة زخرفية، يتوسَّط كلاً منها عقد مفصص يرتكز في الجانبين على دعامتين، وتملأ كل المساحة تشبيكة مخرمة من التفريعات والتوريقات والأوراق الكأسية، كما كان جانبي كل حشوة من هذه الحشوات الاثنتي عشرة أشرطة كتابية بالخط اللين، نقرأ فيها بعض العبارات الدعائية الرائقة، مثل: (الملك لله)، (العزة لله)، (العزة لله وحده)، (الحمد لله وحده)، (الشكر لله وحده)، (اليمن والإقبال)، (الغبطة المتصلة)، وهذه العبارات ممّا انتشر تداوله على العمارة وفنون بلاد الأندلس والمغرب خلال العصور الإسلامية المتعاقبة منذ عهد الخلافة بقرطبة (٣١٦ – ٤٢٢هـ / ٩١٢ – ١٠٣٠م)، إلا أنها كانت أكثر انتشارًا من ذي قبل في فنون وعمائر العصر المريني[١] (شكل٢).

الجامع الكبير بالمنصورة:

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ إنشاء هذا الجامع؛ إذ يذكر ابن أبي زرع في سياق حديثه عن حوادث عام (٧٠١هـ/١٣٠٢م) أن السلطان أبا يعقوب يوسف[٢] قام بتشييد تلمسان الجديدة: "وبنى بها الحمامات العظيمة، والفنادق والمارستانات، وجامعًا كبيرًا للخطبة، أقامه على الصهريج الكبير، وبنى به منارًا عظيمًا، وجعل على رأسه تفافيح من ذهب بسبعمائة دينار"، وذكر في موضع آخر أنه شيده في عام

---

(١) رامي ربيع: ثريا الجامع الكبير بفاس الجديد: تحفة فنية فريدة من العصر المريني، مجلة مدارات ونقوش – العدد ١٢

https://jbhsc.ae/wp-content/uploads/2020/09/magazine-187acf79156119506210381861.jpg

(٢) **أبو يعقوب يوسف ابن عبد الحق (٦٨٥– ٧٠٦هـ/١٢٨٦-١٣٠٧م)** :ولي بعد وفاة والده بالجزيرة الخضراء، وابتدأ عهده بالتنازل عن أملاك أبيه في الأندلس لبنى الأحمر، أما في المغرب فقد خاض أبويوسف الكثير من المعارك ضد القوى المناوئة له، كتمرد بنى إدريس بجبال ورغة، كما غزا عرب الصحراء، وبنى رياح، وبنى زغبة، والكثير ممن ناوئ الدولة المرينية في المغرب في عهده. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٣٧٤: ص٣٨٠، ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٢٩٤.

(٧٠٠هـ/١٣٠١م)، بينما ذكر كل من ابن خلدون والناصري أن أبا يعقوب يوسف شيد جامع المنصورة في عام (٧٠٢هـ/١٣٠٣م)، وهناك رأي يرجح أن إتمام إنشاء هذا الجامع كان في عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) في عهد السلطان أبي الحسن المريني[١].

ويرى أحد الباحثين أنه يمكن القول إن الشروع في بناء المسجد كان في عام (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، واكتمل العمل به في عام (٧٠٢هـ/١٣٠٣م)، حيث ذكر أبو زرع أن أبا يعقوب يوسف أقام الخطبة فيه في هذا التوقيت، بينما اقتصرت أعمال أبي الحسن على تجديد هذا المسجد في عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) في جملة تجديده لمنشآت مدينة المنصورة بعد أن خربها بنو عبد الواد[٢].

المسجد الجامع بتازة:

شيد الخليفة عبد المؤمن الموحدي مسجد مدينة تازة الجامع (٥٢٩هـ/١١٣٥م) ليكون معهدًا لنشر المذهب الموحدي بجانب دوره كمسجد للعبادة، ويقع هذا المسجد في تازة العليا بالزاوية الشمالية الغربية من المدينة، وقد أضاف السلطان أبو يعقوب يوسف المريني إصلاحات جوهرية، بلغت تكلفتها وفقًا لما ذكره ابن أبي زرع ثمانية آلاف دينار ذهبي[٣].

مسجد سيدي بومدين بالعباد:

يعد هذا المسجد ثاني المساجد المرينية بالمغرب الأوسط، وقد شيده السلطان أبو الحسن في عام (٧٣٩هـ/١٣٣٩م) ببلدة العباد القريبة من تلمسان كملحق لضريح سيدي بو مدين، ذلك الصوفي الأندلسي الكبير أبو مدين شعيب بن الحسن المتوفى (٥٩٤هـ/١١٩٧م) [٤].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٤٠٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٦٢؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، ج٣، دار الكتاب، الدار البيضاء، د–ت. ج٣، ص٨٠؛ أبو رحاب: المدارس، ص٩٠.

(٢) أبو رحاب: المدارس، ص٩٠.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٤٠٩.

(٤) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين، أشهر متصوفة المغرب على الإطلاق، أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، وتوفي بتلمسان، دفن بالعباد خارج تلمسان، للمزيد انظر: ابن الزيات: التشوف=

جامع الحمراء بفاس الجديد:

شيد هذا المسجد على يد أحد سلاطين بني مرين، ولكن يصعب تحديده على وجه التأكيد، وقد اختلفت آراء الباحثين في هذا الصدد؛ فيرى البعض أنه نتيجة للتشابه الكبير بين هذا المسجد ومسجد العباد الذي شيده السلطان أبو الحسن (٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، يمكن القول إنهما من تصميم معمار واحد، ولحاكم واهد، وهو أبو الحسن المريني[١].

في حين أرجع بعض الباحثين[٢] نسبة هذا المسجد إلى السلطان أبي عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٧م)؛ استنادًا إلى ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عند الحديث عن هذا السلطان، حيث ذكر "من أعظم حسناته – أيده الله – عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلي، وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء، وإشراق النور وبديع الترتيب"[٣].

الزوايـــا:

إن الدعائم الأساسية لقيام الزاوية[٤] لم تخرج عن ضرورات الحياة الفعلية، فالزاوية ظلت منذ ظهورها مركزًا لإطعام الطعام، وقد حولت هذه الوضعية الزاوية إلى

=إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٣١٩.

(١) أبو رحاب: المدارس، ص٩٣.

(٢) المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص٣٠.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،تحقيق كرم البستانى ،دار النفائس ،بيروت ،١٩٩٧م.ص٦٦٤.

(٤) كلمة زاوية مشتقة من الفعل انزوى، بمعنى اتخذ ركنًا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبّد، كما يطلق على الزوايا لفظ: الخوانق، وهي جمع خانكاه. كلمة فارسيّة تعني بيت، وأصلها خانقاه، وهي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وقيل لفظ زاوية مشتق من زوى، ويقصد به: زوى، زُويا، زيا الشيء، أي جمع الشيء وقبضه، كما تعني الركن، ويطلق هذا اللفظ في شمال إفريقيا على مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني: غرفة للصلاة، ضريح لأحد المرابطين أو ولي من الأشراف تعلوه قبة، غرفة قصرت على تلاوة القرآن، مدرسة لتحفيظ القرآن، غرفة مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج=

مؤسسة اجتماعية، لرعاية المحتاج، وعابر السبيل، فكان من ضروريات هذه الوظيفة أن تكون لها أملاك خاصة بها، أو محبسة عليها، تستثمرها للوفاء بهذه الالتزامات، ولتغطية الخدمات المجانية، لتتوسع في الحصول على الصدقات، والهبات، والزيارات، وكان المغرب المريني يستعمل كلمة الزاوية للدلالة على مؤسسات إحسانية، تشيد بأرباض المدن أو في الفلوات، برسم استقبال الواردين عليها، لإيوائهم والقيام بضيافتهم، وذلك ما شرحه ابن مرزوق في هذه الفقرة: "والظاهر أن الزوايا عندنا بالمغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين"[١].

ولم تقتصر الزوايا في تشكيل مؤسستها على وظيفة الإطعام، بل ثمة وظائف أخرى أسهمت بدورها في تقوية رصيدها الرمزي، فالزاوية هي في الأصل مركز للتعليم والوعظ، وقبلها كان الرباط أداة لتصحيح العقيدة والدفاع عن الملة الإسلامية ضد كل أشكال الانحراف الديني، وبوصف الزاوية شكلًا متطورا للرباط، فقد تحولت العملية التعليمية البسيطة إلى ممارسة تعليمية دينية محكمة وفق شروط أكثر وضوحًا، فتمكنت الزاوية من مقروءاتها، وموادها المدروسة، وفقهائها المقدمين للتحصيل، كما استقطبت المتعلمين من كل الآفاق موفرة لهم شروط التعليم والإقامة[٢].

وثمة ملاحظة تكاد تكون مهمة أن تاريخ ظهور الزوايا بالمغرب كمؤسسة بالمعنى الصوفي غير معروف بالتحديد قبل القرن السابع الهجري، فقد ظهرت بمبادرة

=والمسافرين، وغرف للطلبة، ويلحق بالزاوية عادة مقبرة تشمل قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم أن يدفنوا بها"، ويمكن تعريفها أيضا بأنها مدرسة دينية، ودار لضيافة الأغراب، وتعد مراكز لشيوخ الطرق الصوفيّة، مخصّصة للعلم، والثقافة العربيّة الإسلامية في مراحل الدراسة. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٤٥١؛ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٥؛ الحسين أسكان: تاريخ التعليم في المغرب خلال العصر الوسيط (١-٩هـ/٧-١٥م)، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ٢٠٠٤م، ص٨٨.

(١) المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق د .ماريا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،١٩٨١م.ص٤١٣.

(٢) الحسين أسكان: تاريخ التعليم بالمغرب فى العصر الوسيط، ص ٥.

الرعية أول الأمر، ثم تبنى المخزن المريني الحاكم هذه المبادرة، وهكذا لم تظهر الزوايا الرسمية لإطعام وإيواء المسافرين إلا منذ العقد التاسع من القرن السابع الهجري على يد المخزن المريني، وكانت أقدم الزوايا المرينية هي زاوية تافرطست التي بنيت سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) على قبر الأمير عبد الحق المتوفي سنة(٦١٤هـ/١٢١٧م)، والمشيدة على نهر سبو، وحبس عليها مدخول أرض فلاحية تعادل مساحتها؛ لإطعام أبناء السبيل على الدوام، وأسست بعد ذلك زوايا أخرى بكثير من المدن، منها زاويتان بمكناسة، أسسهما السلطان أبو الحسن، الأولى عندما كان وليًّا للعهد، والثانية بعد انفراده بالحكم، أما الزوايا التي أسسها السلطان أبو عنان فمنها زاوية بضاحية مدينة سلا، وهي معروفة بزاوية النساك، والزاوية المتوكلية، وزاوية أخرى بمدينة سبتة[١].

وتعد الزاوية المتوكلية أشهر الزوايا التي أسست في العصر المريني، وتسمى المتوكلية نسبة إلى مؤسسها أبي عنان المريني الملقب بالمتوكل على الله الذي أسسها عام (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، ثم صارت تعرف بدار الضيفان نسبة إلى وظيفتها الإحسانية، وقد اندثرت الزاوية في القرن(١١هـ/١٧م)[٢]، إلا إن النميري يحتفظ بوصفها الدقيق في رحلته فيض العباب، فهي: "شامخة البناء، منفسحة الساحة، مبيضة المظهر، ... وقابله – في الشمال– قبة سامقة ازدوج فيها الحسن الباطن مع الجمال الظاهر، ويدور بالزاوية – من جهاتها الأربعة– مباحات بديعة الاختراع، متقابلة الأشكال والأوضاع، قامت أساطينه كأنها عرائس تجلى، وكسيت أرضها من الصنائع حللا، وقد امتدّ من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض، ينتصب على حافتيه أسدان مصوران من الصفر، ليقذف – من أفواههما– الماء النازل للصهريج... وفي كل ركن من أركان الزاوية باب ينفذ إلى دار بديعة البناء، متناسبة الأجزاء، مكتملة

(١) المرجع نفسه، ص٨٨.

(٢) المنونى: ورقات عن حضارة المرينيين، ص ٦٧.

المنافع، إلا الباب الواقع في الشمال الغربي، فإنه يؤدي إلى دار وضوء مستوفية المرافق"[١].

وقد ظهرت ملامح العمارة الأندلسية في أغلب زوايا المغرب الإسلامي حيث جرت عادة الحكام في الاستعانة بعرفاء البناء الأندلسيين لإتمام مشروعاتهم العمرانية[٢]. وكان جامع قرطبة هو النموذج المحتذى به في تصميم أغلب مساجد الغرب الإسلامي فلا يقل أهمية عن الجامع الكبير في دمشق أو الجامع الكبير في القيروان[٣].

العمارة المدنية:

المدن:

تعددت أنواع وأدوار المدن التي بناها المرينيون؛ فهناك مدن بلغت من العظمة والفخامة مبلغًا عظيمًا، وقصدها التجار وطلاب العلم من جميع الآفاق، كمدينة المنصورة المرينية، وفاس الجديد، وهناك قصبات، أو قرى صغرى تطورت فيما بعد إلى مدن بكامل مرافقها، كقصبة تطوان التي بناها السلطان يوسف سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وشالة الحديثة التي تم بناء أسوارها وبابها الأكبر في عهد أبي سعيد (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، وقلعة كرسيف، وقصبة العرائش التي تم بناؤها سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م)، كما توجد قرى أو مدن شيدوها، ولم تكتمل لأسباب سياسية أو اقتصادية[٤].

---

(١) النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٠م. ص ص ٤٧–٤٩.

(٢) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣٧٥.

(٣) جورج مارسيه: الفن الإسلامي، ترجمة: عبلة عبد الرازق ، مراجعة:عاطف عبد السلام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م، ص١٤٣.

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثه، الدار البيضاء، ١٩٧٨م، ج٢، ص ١٥٤.

فاس الجديد:

تقسيم المدينة:

أهم ما تركه بنو مرين على الإطلاق دار ملكهم ومقر حكمهم، وبحسب العمري، فهي عبارة عن ثلاث مدن موازية لفاس البالي على ضفة الوادي المعروف بوادي الجوهر[١] وهي كالآتي:

١- المدينة البيضاء:

قد اختطها أبو يوسف يعقوب[٢] عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)لتكون دارًا لملكه ومكانًا لسكني حاشيته، وجمع لها البنائين والصناع، ونزلها بحاشيته وذويه، واختطوا بها الدور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قصوره[٣]، ثم أضاف إليها الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، وامتد عمرانها من شمالي ربض النصارى إلى ضفة النهر، وتقع أول عمارة فاس الجديدة قبالة آخر عمارة فاس العتيقة[٤].

أسوار فاس الجديد:

كانت مدينة فاس الجديد تتمتع بازدواجية السور الذي يحيط بها، ويلبي رغبة أكيدة لدى مشيدي المدينة في تحصينها الجيد؛ ضمانًا لمنعتها ضد أي عدوان خارجي، وقد قارن العمري بين حصانة وأسوار كل من فاس القديم وفاس الجديد، وتوصل إلى ما يأتي: "وتزيد فاس الجديد على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة

---

(١) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٤، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرون، مركز زايد للتراث، الإمارات، ٢٠٠١م، ج٤، ص١٧٧.

(٢) أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م): يعد عهد أبي يوسف البداية الحقيقية لدولة بني مرين، فهو المؤسس الفعلى لها؛ وذلك لعدة أسباب ؛فقد استطاع القضاء على دولة الموحدين نهائيًا. ابن أبى زرع :الذخيرة السنية ،ص ٩٠، ص ٩٨؛ ابن خلدون : العبر، ج ٧، ص ٢٤١

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٥٨.

(٤) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٧٧.

والعتيقة بسور واحد من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب، والرمل، والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر، ولا تعمل فيه المجانيق، ولا تؤثر فيه"[١]، ويعزو صاحب الذخيرة السنية[٢] تأسيس أسوار فاس الجديد إلى مؤسس المدينة السلطان أبي يوسف يعقوب، ويرى بعض الباحثين أن التشييد إنما يخص السور الداخلي، بينما السور الثاني الخارجي كان كله أو معظمه من تأسيس سلاطين آخرين جاءوا بعده[٣].

الأبواب :

كان للأبواب خلال العصور الوسطى وظائف عسكرية واضحة، فهي تضم أهم نقاط الحراسة فيها، ولم تعرض معظم المصادر التقليدية لأبواب فاس الجديد، عدا ابن الأحمر[٤] الذي ذكر منها ثلاثة، هي: باب القنطرة، وباب عيون صنهاجة، وباب السبع، بينما ذكر بعض الباحثين أربعة أبواب لفاس الجديد، هي: باب عيون صنهاجة الذي عرف في الوقت الحالي بباب السمارين، وباب القنطرة الذي أصبح يسمى بباب الوادي، ثم باب الجياف شرق باب السمارين، وباب السبع وهو باب المكينة حالياً[٥].

المنصورة (تلمسان الجديدة):

كانت مدينة المنصورة المرينية مدينة عسكرية في بدايتها؛ لأن الظروف التي تحكمت في تأسيسها كانت ظروفاً عسكرية[٦]، حيث غزا السلطان أبو يعقوب يوسف تلمسان سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وحاصرها مدة ١٦يومًا منصبًا عليها المنجنيق، ثم انسحب منها وكرر الغزو مرات كثيرة في سنى ٦٩٤هـ/١٢٩٤م،٦٩٥هـ/١٢٩٥م، ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وكانت الحملة الخامسة و"الأخيرة"

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٧٨.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٩٥.
(٣) المنونى: ورقات عن حضارة المرينيين، ص٤٩.
(٤) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص٢٠.
(٥) المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص٤٦.
(٦) عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية بتلمسان (دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٦١.

هي أطول حملاته التي تخللها الحصار الطويل، وشهد بناء مدينة تلمسان، ولم ينته الحصار إلا بمقتل السلطان نفسه على يد أحد مواليه، وكان طبيعيًّا أن تحظى مدينة المنصورة بعناية سلاطين بني مرين واهتمامهم، وهي العاصمة الجديدة لدولتهم، فجمعت مدينة المنصورة بين خصائص المدن العسكرية وخصائص المدن الحضارية، حيث شيد أبو يوسف مجموعة المنشآت الحضارية سجلها ابن خلدون بقوله: "واختط بمكان فسطاط المعسكر قصرًا لسكناه، واتخذ به مسجدًا لمصلاه، وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة، والمنازل الرحيبة، والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين، وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعمائة، وصيرها مصرًا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة، وكثرة عمران ونفاق أسواق، واحتفال بناء وتشييد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان، وابتنى مسجدًا جامعًا، وشيد له مئذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها، وسماها المنصورة، واستبحر عمرانها، ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، فكانت إحدى مدائن المغرب"[١]. وأسس السلطان أبو الحسن مجموعة عمرانية ومعمارية بحي العباد العلوي اشتملت على مدرسة، ومسجد، وضريح، وحمام، وقصر، كما شيد داخل تلمسان الزيانية مرافق كثيرة، كقنوات توصيل المياه، وقناطر، وجسور في مواضع متعددة من المدينة؛ تسهيلاً لحركة السكان وتنقلاتهم[٢].

قصبة تطوان:

بنيت في عهد أبى يعقوب يوسف سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وكان بناء القصبة يهدف إلى حصار سبتة أو الأخذ بمخنقها، كما ذكر عبر ابن خلدون[٣]، والاستيلاء عليها شأن طريقة بني مرين في حصار المدن الأخرى، كالجزيرة الخضراء[٤]، وتلمسان التي بنوا حولها المنصورة. وقد ظلت تطوان عامرة لنحو قرن من الزمان،

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٩٣.

(٢) عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية، ص٦٩.

(٣) العبر، ج٧، ص٣١٤.

(٤) الجزيرة الخضراء مدينة أمام سَبْتَة من برّ الأندلس الجنوبيّ، تقع في منطقة قادس، على بُعْد ستة أميال إلى الغرب من جبل طارق، وقد أعاد المسلمون تأسيسها سنة (٩٥ هـ/ ٧١٣م) الإدريسى :نزهة المشتاق ،ج٢،ص٥٣٩.

حتى أصبحت من المراكز الأولى لحركة الجهاد البحرى بالمغرب، وفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) استولى عليها الأسبان، فهجرها سكانها وخربها الغزاة الجدد، ويعود تاريخ تطوان وقصبتها الأولى إلى وقت طويل قبل هذا التاريخ، فقد ذكرها البكري مراراً في الجزء الخاص بشمال إفريقيا[١].

القصور :

ورد الكثير من الإشارات التاريخية تتعلق بإنشاء سلاطين بنى مرين للقصور، في كلا المغربين الأقصى والأوسط والأندلس، غير أن هذا القصور لم يتبق منه إلا آثار قليلة؛ نظرًا لتعرض هذه العمائر للتعدّى والتدمير، ولكونها لاتحظى بالحرمة التي تتمتع بها العمائر الدينية[٢]، كما ذكر ابن خلدون أن الناس في عصر السلطان أبي الربيع سليمان (٧٠٨-٧١٠هـ/١٣٠٨-١٣١٠م) تنافسوا في البناء "واتخذوا القصور المشيدة بالصخر، والرخام، وزخرفوها بالزليج والنقوش" [٣]، ومن أهم القصور التي أسسها بنو مرين:

١- القصر الملكي بفاس الجديد:

حفلت فاس الجديد بكثير من المنشآت الفخمة التي تليق بدار ملك سلاطين بني مرين، وأولها القصر الملكي، وكان عالي البناء، ويشتمل على قبات عليا ضخمة، وغرف مرتفعة، ومجالس سلطانية، ويصف العمري قبة ذلك القصر بقوله: "وبداخله القبة المعروفة بقبة الرّضا، وهي قبة عظيمة الارتفاع، خارقة الاتّساع، وقدّامها بركة ممتدة، بها مركب لاتساعها وكبرها، وخلفها بركة أخرى مثلها، بها مركب آخر لاتساعها وكبرها، ومساحة البركتين واحدة، والقبة العظمى بينهما، وفي نهاية كلّ بركة قبة لطيفة المقدار، وفي جميع جدر القباب شبابيك مطلة، والبستان حافّ بالجميع، وهو بستان جليل منوّع بصفوف الأشجار والغراس على اختلافها"[٤].

---

(١) البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٦٦٨.
(٢) أبو رحاب: المدارس، ص١١١.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٨٢.
(٤) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص ١٧٢.

٢-قصر أبي فير (بفاس الجديد):

ذكره ابن الخطيب في معرض حديثة عن حريق شب بالبلد الجديد بقوله: "فاصْطَلَمت القصر المعروف بأبي فير مطرح الأموال المجموعة، ... المشتملة دُوره وزواياه على الكثير من عُدد المُلك، وآلات الحركات، وأجرام المنشآت، وثمين السلع من اللَّك، والنَّيلج، والعاج، والأبنوس، والصندل، وَشِبْهه"[١].

٣- قصر العباد (بتلمسان الجديدة):

يُعد قصر العباد ثاني قصور بني مرين في تلمسان، وقد شيد هذا القصر السلطان أبو الحسن المريني في الفترة بين ٧٤٦ و ٧٤٩هـ/١٣٤٥و١٣٤٨م . وبخلاف القصر الأول، قصر النصر أو الفتح[٢]، فقد حافظ قصر العباد على جزء من عمارته، وجزء من زخرفته، وكان هذا المبنى الأثري يشكل مجمعًا يتكون من ثلاث مجموعات بنائية تتوزع على ثلاث ساحات[٣].

الدور:

فضلا عن القصور، كانت هناك بعض الدور الخاصة التي أسسها السلاطين كالدار التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني حيث رسم للبنائين، على كاغد، صورة الدار التي قرر بناءها للأميرة التونسية عزونة ابنة السلطان أبي بكر لما كانت في طريقها إلى المغرب مع خطابها له على ما يرويه ابن مرزوق في كتابه المسند حيث قال: "علىّ بأرباب الصناعات من البنائين، والنجارين، والجباسين، والزليجيين، والرخامين، والقنويين، والدهانين والحدادين، والصفارين... وقال لهم أريد دارًا تشتمل على أربع قباب مختلفة، ودويرتين تتصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس، والزليج، ..... ونقش ساحة الدار وفرشها زليجًا ورخامًا، بما فيها من

---

(١) نفاضة الجراب، ص٨٩، المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص٥٥.

(٢) عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية، ص٩٢.

Charles BROSSELARD: " Les inscriptions arabes de Tlemcen, Revue Africaine, 1859, 2ème edit., Alger: OPU, 1984,p122..

(3) Rachid Bourouiba: L'art Musulman en Algérie, Societe Nationale d'Édition et de Diffusion, 1972,p55.

طيافير الرخام، والسواري، والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم، المشتركة المدهونة، والأبواب بالصناعات المؤلفة، والخزائن، والحلية في جميع ذلك من النحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر"[١].

البيمارستانات:

تعد البيمارستانات إحدى المظاهر الطبية التي أظهرت التفوق العلمي والعملي الذي برع فيه المسلمون، ووصلوا بها إلى درجة متقدمة من التطور الحضاري، والتقدم العلمي، وكانت الأهداف والغايات التي تنشدها رسالة البيمارستانات نبيلة وسامية، لا يقصد من ورائها إلا خدمة الإنسان، والمجتمع دون أي ثمن أو مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، والحاضر والبادي، والمسافر والمقيم، ولم تكن مهمة البيمارستانات مقصورة على مداواة المرضى فحسب، بل كانت في الوقت نفسه دُورًا للرعاية الاجتماعية، ومعاهد علمية لتعليم الطب والصيدلة، حيث تُلَقى فيها الدروس النظرية إلى جانب التطبيقات العملية، إضافة إلى أنَّ هذه البيمارستانات في ذلك العصر كانت منظَّمة تنظيمًا مثاليًا، من جميع النواحي المتصلة بها، سواء من ناحية اختيار الموقع، والتصميم، والبناء، والتموين، والإدارة، أو من ناحية أنظمتها العلاجية، والإدارية، والمالية، وتطورت هذه البيمارستانات حتى أصبحت مؤسسات طبية، وجامعات، ومراكز تعليمية في آن واحد، تُلَقى فيها الدروس العلمية والنظرية، إلى جانب دورها الأساس الذي قامت من أجله ألا وهو العلاج والمداواة[٢].

وقد ازدهرت البيمارستانات في عصر الدولة المرينية ازدهارًا كبيراً؛ فتعددت أنواعها، فكان منها من هو خاص بعلاج الأمراض العقلية والجذام، ومنها ما هو عام لجميع الأمراض، كما لم يقتصر وجودها على العاصمة فقط، بل في مختلف مدن المغرب، إذ حرصت السلطة المرينية – منذ نشأتها – على إصلاح البيمارستانات القديمة وإنشاء أخرى جديدة، حيث أورد ابن أبي زرع أن يعقوب بن عبد الحق: "لما

---

(١) ابن مرزوق: المسند، ص٤٠٠.

(٢) البشير بنجلون: تاريخ البيمارستانات بالمغرب، المجلة الصحية المغربية، العدد ٣، الرباط، ٢٠١٢م، ص٣٢.

استقام له الأمر صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم كل يوم غدوة وعشية، وأجرى على الجذامى ..... والفقراء مالاً معلوماً يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود"[١]، وقد استمر الاهتمام بالجانب الصحي طوال فترة حكمهم، وهذا ما أكده الحسن الوزان عند قوله: "يوجد بفاس مارستانات عديدة لا تقل حسناً عن المدارس ... وكان الغرباء قديماً يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام، ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة لا تقل جمالاً عن التي في داخلها"، وكان الإشراف الإداري العام على البيمارستان مرتبطاً بناظر يشرف على إدارة الأموال والأوقاف المخصصة له، وعلى سلامة مبانيه، وحسن سير العمل فيه، وكان في كل بيمارستان عدد من الأطباء المهرة الذين أسهموا بجهودهم في تطور الطب، يساعدهم في عملهم الفراشون، والقومة لخدمة المرضى، وللقيام بأعمال النظافة، وأضاف الوزان: "أن البيمارستانات تتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتاب، وممرضين، وحراس، وطباخين، وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجرًا حسنًا من مال الأوقاف"[٢].

مارستان سيدي فرج (شكل٤):

هو أشهر البيمارستانات المرينية على الإطلاق، أسس على يد السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق عقب توليه الملك سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، وعهد مؤسسه بإدارته إلى أشهر الأطباء، وأوقف عليه الحبوس الكثيرة من العقار للصرف عليه وحفظه، ولما عظم أمر البيمارستان، واتسعت أعماله، أدخل عليه السلطان أبو عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٧م) زيادات عظمى، وقد جاء ذكر هذا البيمارستان في سلوة الأنفاس: "أنه بالقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس، مكان يقيم به المرضى الذين بعقولهم مرض، وهم المجانين، ويسمى ذلك المكان سيدي فرج على أنه لم يدفن به أي شخص كان يسمى بهذا الاسم، وليس به

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٩٨.

(٢) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ، ترجمة د. محمد حجي، و د. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان،١٩٨٣م، ص ص ٢٢٧-٢٢٨.

قبر، وإنما بنى هذا المكان أحد السلاطين ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، وقيل إنه سُمِّي "سيدى فرج" لأن المرضى كانوا يجدون فيه ما يفرج كربهم، وقد حبست عليه الحبوس التي كانت تصرف غلتها عليه"[١]، وقيل إنه سُمِّي بذلك؛ لأن شخصًا من بني الأحمر يسمى فرج الخزرجي تولى رئاسة البيمارستان فنسب إليه، وليس في مدخل البيمارستان شيء يستوقف النظر، ويحيط به جدار أبيض، وعليه باب عال مغطى بالحديد شأنه كسائر أبواب المدينة مقفل على الدوام، ولا يفتح إلا قليلا[٢]. وقد تغيرت وظيفة هذا البيمارستان في الوقت الحالي، حيث حولته وزارة الأوقاف المغربية، إلى سوق – قيسارية – مزود بالدكاكين، وعوضته ببناية أخرى بناحية سيدي أبي جيدة بفاس البالي[٣]. وبالإضافة إلى فاس، توزعت البيمارستانات المرينية في مدن مغربية أخرى غير فاس منها:

مكناس: وبها مارستان من تأسيس السلطان أبي عنان أيضًا، ومازالت بنايته قائمة في حي الحمام الجديد، يميزها باب لطيف، نقش به كتابة بالخط الثلث توضح اسم المؤسس وبانيها، واشتملت على قسمين: الأول كان – فيما يظهر – مخصصًا لعلاج المرضى، ويتكون من طابقين، بكل منهما حجرات صغرى، ويتوسط ساحة الطابق الأسفل مربع به صهريج صغير، أما القسم الثاني: فكان موقعه شرق البناية الأولى في طابق واحد مقسم إلى بيوت مخصصة لإقامة المعتوهين[٤].

الرباط: ويعزى تأسيس بيمارستان الرباط للسلطان المريني عبد العزيز الأول، ومازالت بنايته حالياً في مقابلة باب الجامع الكبير من الناحية الغربية[٥].

تازة: كان بداخلها بيمارستان مرينى حسب اللوحة الرخامية لوقف السلطان أبي عنان عليه، فضلاً عن أحد أجزاء الحوالة الحبسية للمدينة نفسها، وهي تحتفظ بفقرة صغيرة تقول: "نصف أشجار عرصة المارستان"[٦].

---

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م،ج٣، ص١٥٥.
(٢) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص٢٨٤.
(٣) أبو رحاب: المدارس، ص١١٦.
(٤) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية، ص٣٣.
(٥) المرجع نفسه، ص٣٣.
(٦) المرجع نفسه، ص٣٥.

سلا: وبها المستشفى العناني نسبة إلى السلطان أبي عنان المريني، وكان موقعه بالبناية المعروفة بفندق أسكور في حي باب إحساين في بناء حفيل، يشتمل على بيوت كثيرة، بعضها لفحص المرضى، وباقيها للمعتوهين، وبقي منه بابه شاهدًا على حسن بنائه، تعلوه كتابة تشتمل على اسم بانيه أبي عنان، وعلى تسميته بالمارستان، مكتوب ذلك في زليج أسود ملصق على تاج الباب[١].

آسفي: أشار لسان الدين ابن الخطيب إلى مستشفى آسفي خلال حديثه عن هذه المدينة، وقال عن ناظره: «وتردد به إلى صاحب السوق، ومقيم رسم المارستان الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري»[٢]، وقد كانت زيارة ابن الخطيب لآسفي عام(٧٦١هـ/١٣٦٠م)، حيث وجد المارستان قائما دون أن يذكر مؤسسه، على أن البعض يرجح أن يكون من تأسيس أبي عنان.

وممن عمل بمستشفيات فاس في العصر المريني "أبو فارس عبد العزيز بن محمد القروي" الذي يُعد من مشايخ أعلام فاس وصلحائها، و"أبو القاسم بن أبي بكر القريشي المالقي ثم الغرناطي" نزيل فاس الذي شغل ناظرا بالمستشفى في عهد أبي عنان من سنة ٧٥٤ هـ إلى حين وفاته سنة (٧٥٧ هـ / ١٣٥٦م)[٣].

الفنادق:

أدت الحركة التجارية النشطة من وإلى موانى بلاد المغرب والأندلس إلى ظهور الحاجة لأماكن يأوي إليها التجار والوافدون من عمال وغيرهم، ولاسيما في الظروف الجوية السيئة التي تلزم بعض التجار البقاء في الموانى لعدة شهور، كما أن التجار حال وصولهم للبلاد التي يتجارون فيها، كانوا يحتاجون وبشدة لخدمة الفنادق لإنزال بضائعهم فيها؛ لغرض احتساب ما عليها من ضرائب من قبل موظفي الميناء التابعين للمحتسب أولاً، ولتأمينها من السرقة ثانياً[٤].

---

(١) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية، ص٣٥.

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص١١.

(٣) السعيد لمليح: مؤسسة الأوقاف وأهميتها الفكرية، ص١٢.

(٤) خليل خلف الجبوري: معالم من الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الفنادق أنموذجاً)، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر، ديسمبر ٢٠١٢م، ص٥٧.

ويطلق مصطلح فندق في المغرب على نوعين من المنشآت، يتشابهان في التكوين المعماري، ولكنهما يختلفان من حيث الموقع والوظيفة، يوجد النوع الأول على طرق المدينة، وعلى الطرق التي تربط بين المدن، ويستعمل لإيواء المسافرين والعابرين بدوابهم، وهو شبيه بالخانات في المشرق الإسلامي، وقد وزعت هذه الفنادق على مسافات ثابته يعلمها المسافرون، تقدر باثني عشر ميلاً[١]، أما النوع الثاني: فيوجد بداخل المدن، وهو معد– فضلاً عن الإيواء– لتخزين البضائع ولمختلف الحاجيات الصناعية والتجارية، حيث تتحول حجرات وغرف الفندق إلى مخازن للغلال والفواكه والسلع، ومعامل للصناعات اليدوية، مع ملاحظة أنه قلما يتعايش التجار والصناع في فندق واحد، فكل حجرات وغرف الفندق يستغلها إما تجار أو صناع[٢].

وقد عرف المغرب الفنادق بنوعيها قبل عصر بني مرين، فقد ذكر ابن أبي زرع في سياق حديثه عن مرافق مدينة فاس في عهد الموحدين: أن بها من الفنادق المعدة للتجار والمسافرين والغرباء أربعمائة وسبعة وستين فندقا"[٣].

وفي العصر المريني كان للعلاقات السياسية والمعاهدات التجارية في الخارج أثر كبير في نمو تجارة المغرب الخارجية، حيث أقبل التجار الأجانب من مختلف أقطار أوربا– كجمهوريات إيطاليا، وفرنسا، والبرتغال وإسبانيا– إلى المغرب، وشجعهم على التعامل معه انتشار الأمن والطمأنينة – خاصة في الفترة الأولى من العصر المريني – وحاجتهم إلى منتجات المغرب، ورغبة المرينيين في الحصول على مختلف أنواع الأسلحة والسلع التي تحتاجها البلاد، إلى جانب تعدد المراسي والموانى كميناء سبتة، ومرسى أنفا "الدار البيضاء"، ومرسى طنجة، ومرسى غساسة وغيرها[٤].

---

(١) وحدة قياس مسافة تعادل ١٨٤٨ مترًا. وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته (الشامل للأدلة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها)، ج١، دار الفكر، دمشق، د–ت، ص١٤٢.

(٢) محمد السيد أبو رحاب: الآثار الإسلامية بالمغرب الأقصى في العصرين المريني والسعدي (دراسات وبحوث)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠١٥م، ص ص ٧–٤٧.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٤٨.

(٤) أبو رحاب: الآثار الإسلامية بالمغرب الأقصى في العصرين المريني والسعدي (دراسات وبحوث)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠١٥م، ص ٧–٤٧.

وتتكون الفنادق المرينية بشكل عام من صحن أوسط مكشوف، تتوسطه فسقية من الرخام، ويحيط بهذا الصحن ممرات، أو أروقة مسقوفة، وزعت خلفها مجموعة من الحجرات والغرف، موزعة في الغالب على ثلاثة مستويات "طوابق"، مع وجود ميضأة، وافتراض وجود وحدات خدمية أخرى بالدور الأرضي كمخازن للبضائع واصطبلات للدواب[١]، وفي العادة يخلو الفندق من أي منفذ لتجنب السرقات، وكانت غرفة الفندقي (صاحب الفندق) تقع في الطابق الأعلى، ومزودة بنافذة تطل على الباب الرئيس، ليتمكن من أن يشاهد الداخل والخارج[٢].

الحمامات العامة:

انتشرت الحمامات في العصر المريني انتشاراً كبيراً بالتوازي مع النهضة العمرانية الكبرى التى حققها سلاطين بني مرين، كما تدل على ذلك إشارات المؤرخين، فيذكر الأنصاري أن بمدينة سبتة وحدها اثنين وعشرين حماماً، ويذكر الوزان أن مدينة فاس وحدها تتوفر على مائة حمام، ويرجع الاهتمام بهذه الحمامات إلى أن معظمها كان: "ملكاً للمساجد والمدارس، تؤدي لها كراء مرتفعاً يبلغ المائة، والمائة وخمسين مثقالاً، أو أقل، أو أكثر بحسب حجم المكان" [٣].

تكوين الحمامات المرينية:

من خلال وصف الحسن الوزان للحمامات المرينية في سياق حديثه عن حمامات فاس، يتبين أنها تمتعت بالشروط كافة التي ذكرها العلماء، حيث ذكر أنها: "جيدة البناء، حسنة الصيانة، بعضها كبير، وبعضها صغير، وكلها على شكل واحد؛ أي أن في كل واحد منها ثلاث حجرات، أو بالأحرى ثلاث قاعات، وفى خارج هذه القاعات الصغيرة غرف صغيرة مرتفعة قليلاً، يصعد إليها بخمس درجات أو ست،

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٧-٤٧.

(٢) خليل خلف الجبوري: معالم من الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الفنادق أنموذجاً)، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر، ديسمبر ٢٠١٢م، ص٥٨.

(٣) الأنصاري: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، ط٢، الرباط، ١٩٨٣م، ص٣٨.

حيث يخلع الناس ثيابهم، ويتركونها هناك، وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، إلا إنها كبيرة جدًّا"[١].

ثم يستطرد في حديثه، فيذكر صفات القاعات الثلاثة التي يشتمل عليها الحمام بقوله: "وإذا أراد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة، فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخنًا جدًا، ومن ثم نفذ من باب ثان إلى قاعة ثانية أشد حرارة بقليل، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه، وتنظيفه، ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة، حيث يوجد مرجل محكم البناء يسخن فيه الماء"[٢].

وقد كان من بين هذه الحمامات ما هو مخصص للنساء، فضلاً عن وجود بعض الحمامات المشتركة التى تتقاسم فيها النساء والرجال الاستحمام خلال فترتين منفصلتين، كما ذكر الوزان: "وللنساء كذلك حماماتهن الخاصة، إلا إن الكثير منها يستعمل للرجال والنساء، للرجال أوقات معينة بين الساعة الثالثة والرابعة عشرة، أو أكثر أو أقل بحسب الفصول، ويخصص باقي الوقت للنساء، فإذا دخلن الحمام مد حبل على عرض الباب للإشعار بذلك حتى لا يدخله رجل، وإذا أراد أحدهم أن يقول شيئاً لزوجته فعليه أن ينادي إحدى مستخدمات الحمام، وهن زنجيات لتقوم بمهمة التبليغ"[٣].

وإلى جانب الحمامات العامة، كانت بعض الدور تشتمل على حمامات خاصة، فقد ذكر العمرى "وغالب أغنيائهم – يقصد أهل فاس – يعملون لهم حمامات في بيوتهم؛ أنفة من الدخول مع عامة الناس"[٤]، وذكر الأنصاري أن: "بكل دار من سبتة حمام ومسجد إلا القليل، ولقد كان بمنزلنا حامين اثنان ومسجد"[٥]، غير أنه لم يتبق من الحمامات المرينية سوى نماذج قليلة جدًّا، ربما لتعرض مثل هذه المنشآت للمياه بصفة مستمرة[٦].

---

(١) وصف إفريقيا، ج١، ص٢٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٩.
(٣) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ص٢٣٠.
(٤) مسالك الأبصار، ج٥، ص١٤٠.
(٥) اختصار الأخبار، ص٣٨.
(٦) أبو رحاب: المدارس، ص١٢٠.

القناطر والسقايات:

لاقت المنشآت المائية اهتمامًا بالغًا في العصر المريني؛ حيث شيدت عشرات من القناطر – وجددت أخرى – منها قنطرة وادي النجاة، وقنطرة ماريج على يد أبي يوسف يعقوب (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وعلى إثر السيل الذي اجتاح فاس سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، قام أبو سعيد عثمان بتجديد بناء عدد من القناطر في العام نفسه، كقنطرة أبي طوبة، وقنطرة باب السلسلة التي تعرف بقنطرة الطرافين، وبقنطرة سيدي العواد، وقنطرة الصباغين التي تعرف بقنطرة الخراشفيين، وأنشأ أبو الحسن علي قناطر وادي رادات، وقنطرة بني بسيل، وقنطرة الوادي داخل فاس[١].

السقايات :

عرفت السقايات في المغرب كمورد لشرب الإنسان والدواب، وكانت تعد من المنشآت الخيرية المهمة التي حرص السلاطين على تشييدها في مختلف الأماكن الآهلة بالسكان، وقد أشار الأنصاري إلى توفر مدينة سبتة على خمس وعشرين سقاية، بعضها معد لسقي الإنسان وبعضها لسقي الدواب[٢].

وقد احتفظت السقايات المرينية بهندسة خاصة تميزها عن نظيراتها المرابطية والموحدية؛ فتبنى في شكل صهاريج صغيرة نسبيًّا، مستطيلة وقليلة العرض، وتزين واجهتها بالفسيفساء الدقيقة، فضلًا عن زخرفتها وسقفها بالنقش المحفور أحيانًا– في الجص الخشب[٣].

وبحسب بعض الحوالات الحبسية، تأكد مرينية الكثير من السقايات الموجودة في فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى، ففي فاس سقاية ابن حيون، أول حي المحفية، ثم سقاية سوق العطارين بجوار موضع مستشفى فرج، وهذه تتوجها كتابة تذكر أن الآمر بإنشائها هو عبد الحق آخر سلاطين بني مرين على يد وزيره أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، وكَمُلَ تشييدُها وفُجِّرَ ماؤها أول جمادى الأولى

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٠.

(٢) الأنصاري: اختصار الأخبار، ص٣٩.

(٣) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في عصر بني مرين، ص٣٣.

(٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، ثم اختفت وجددت سنة (١٠٩٠هـ/ ١٦٨٠م) [١]،ويوجد في بعض الحولات الحبسية ذكر لأسماء هذه السقايات بمدينة فاس:

- سقاية رحبة صفاح العدوة.
- سقاية حارة قيس.
- سقاية تغر (كذا) بالفخارين.
- فيض نقير الصباغين.
- فيض ماء سقاية البليدة.
- فيض سقاية غدير الجوزاء. [٢]

أما مكناس، ففيها سقاية المستشفى العناني عن يسار مدخله في حي حمام الجديد، ويرجح أنها من آثار أبي عنان باني المستشفى، ثم سبيل السويقة، ويعرف بسقاية سبعة عنابب تلميحًا لعدد أنابيبها، وكانت تعرف قديمًا بالسقاية الكبرى، وسقاية الجمعة: وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة، يغطيها سقف عالٍ محمول على ثلاثة أساطين، ومازالت تحتفظ بأثر الفن المريني في زليج واجهتها، وفي زخرفة سقفها الخشبي بالنقش، ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغار بمكناس[٣].

وفي الرباط، سقاية المارستان العزيزي بالسويقة، وقد اندرجت بقعتها ضمن بناية كبرى حديثة، مكانها الآن مكتبة المعارف، وذلك خلال الثمانينيات الهجرية الأخيرة، وقد أثبت مرينية هذه السقاية[٤].

وقد ضرب السلطان أبو الحسن الرقم القياسي في تجهيز المغرب بالسقايات، وذلك ما لاحظه علي ابن فرحون المدني حين زار المغرب، فسجل :"ما مررت في بلاد المغرب بسقاية، ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب

([١]) المرجع نفسه، ص٣٣.
([٢]) المرجع نفسه، ص٣٣.
([٣]) المرجع نفسه، ص٣٣.
([٤]) المرجع نفسه، ص٣٣.

والوضوء، فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله"، ويزكي ابن مرزوق هذه الشهادة قائلا: "وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وشرب الدواب بفاس وبلاد المغرب، معظمها من بنائه" (١).

العمارة العسكرية:

شكلت مسألة التحصينات خلال العهد المريني نقطة بارزة في سياسيتهم الدفاعية؛ فانتشرت التحصينات على طول البلاد، وتم ترميم كثير من المنشآت العسكرية، وتشييد أخرى، فاهتموا ببناء قلاع ساحلية لمواجهة القرصنة الأوربية، حيث شيدوا أربعة حصون شاهقة بسبتة، ومجموعة من القلاع الممتدة من أسفي إلى مدينة الجزائر، كما حصنوا جبل طارق، و بنوا قصبة تطوان، وقلعة دبدو وغيرها. وتعد قصبة شالة مثالًا حيًّا في مجال التحصين واختيار الموضع الجغرافي بإطلالتها على وادي أبي رقراق؛ جعلها تؤمن الأراضي المجاورة للوادي، وتميزت القصبة بإحاطتها بالأسوار ذات الأبراج، بلغ عددها اثنين وعشرين برجًا للمراقبة موزعة على طول الأسوار، وقد شيدت لأغراض دفاعية محضة، حيث اتخذت الأسوار شكلًا مخمس الأضلاع غير منتظم (شكل٤)، وتميزت بالارتفاع، وباب ضخم كسيت واجهته من الداخل والخارج بحجارة منحوتة. ومثال آخر بمدينة سلا التي أحاطها المرينيون بأسوار خاصة في الواجهة الغربية في عهد يعقوب بن عبد الحق، كما ذكر أبي زرع: "فلما خرج النصارا عنها بنا عليها السور الغربي الذي يقابل الوادي؛ لأنها كانت لا أسوار لها من تلك الجهة ... فسار في بنائه، فبناه من أول دار الصناعة إلى البحر"(٢)، ومن أهم التحصينات التي قام المرينيون ببنائها في سلا باب المريسة؛ أي باب المرسى الصغير، ويبلغ بروز برجيه ٢.٢٠ متر، وعرضهما ٣.٥٠ أمتار، ويتوسطهما قوس كبير منكسر الاستدارة، تصل فتحته إلى حوالي ٩ أمتار، وترتفع

(١) ابن مرزوق: المسند، ص٤١٧.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٣٠١.

قمته إلى ٩.٦٠ أمتار (شكل٥)[١]، وليس هناك شك أنه كان هناك تأثيرات أندلسية في مجال العمارة العسكرية المرينية، وقد صمم التحصينات الدفاعية المرينية بسلا هو المهندس المعماري الأندلسي المعلم "محمد بن علي الإشبيلي" الذي كان كما وصف الناصري: "من العارفين بالحيل الهندسية، ومن أهل المهارة في نقل الأجرام، ورفع الأثقال، بصيرًا باتخاذ الآلات الحربية الجافية"[٢].

خاتمة : خلص البحث إلى عدة نتائج منها:

١- ازدهرت فنون العمارة والبناء في العصر المريني وتنوعت ما بين عمارة مدنية متمثلة في القصور والمدن، والعمارة الدينية المتمثلة في المساجد وغيرها من مجالات العمارة كالمدارس والبيمارستنات والسقايات والفنادق والتحصينات الكبرى.

٢- كانت المؤثرات الأندلسية من أقوى المؤثرات على أشكال وفنون العمارة في العصر المريني.

٣- توصي الدراسة بأن يولى الباحثين جوانب العمارة المرينية بالمزيد من الدراسة والبحث.

(١) https://al3omk.com/553281.html

(٢) الناصري: الاستقصا، ج٣،ص٢٢.

الملاحـــق

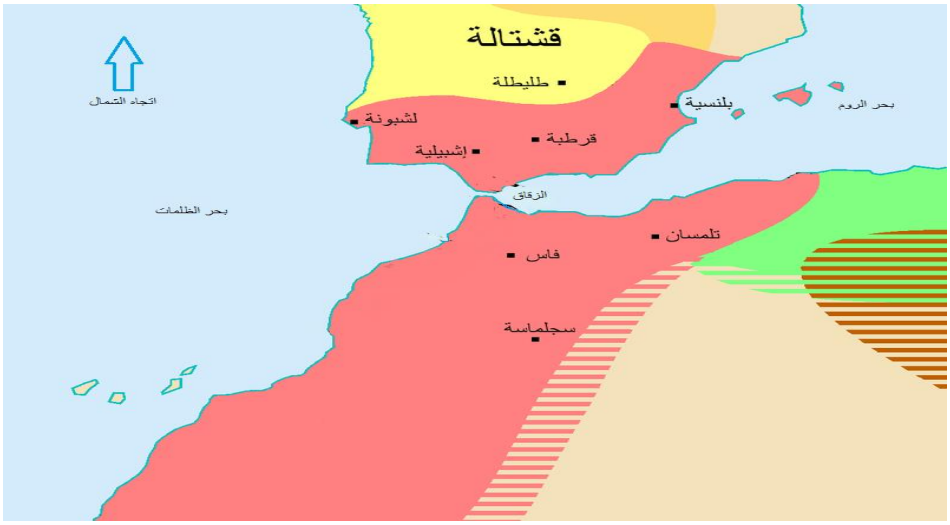

خريطة(١) التقارب بين المغرب والأندلس

https://ar.wikipedia.org/wiki

شكل (١)الجامع الكبير بفاس

https://jbhsc.ae/wp-content/uploads/2020/09/magazine-187acf791561195062103818 61.jpg

(شكل ٢) ثريا الجامع الكبير بفاس

https://jbhsc.ae/wp-content/uploads/2020/09/magazine-187acf791561195062103818 61.jpg

شكل(٣) مارستان سيدي فرج

http://www.al-anssar-world.com/Portail/2015/4194

شكل(٤)تحصينات شالة

https://www.mamlakapress.com

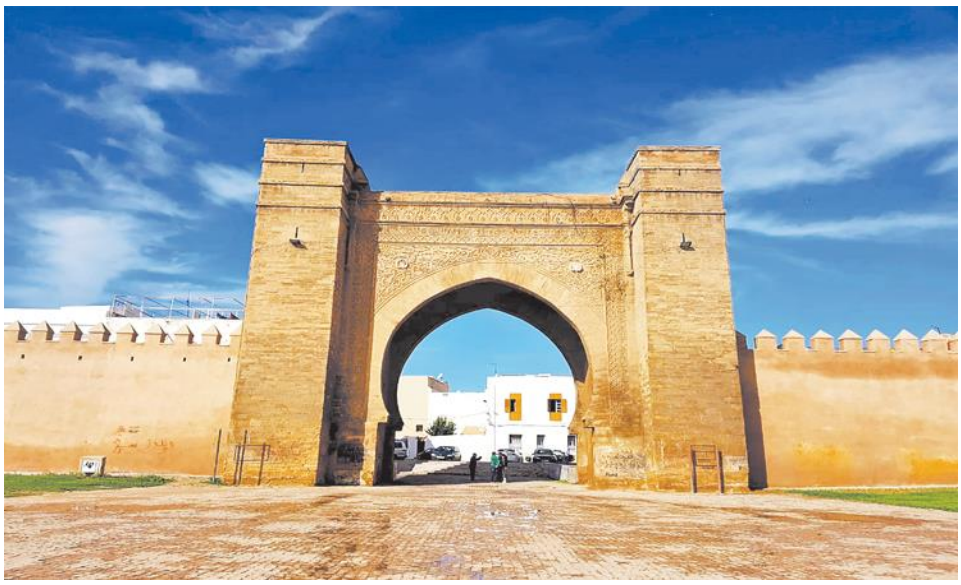

شكل (٥) باب المريسة بسلا

https://alittihad.info